ألقوا الشِّباك ثانيةً...
عن واقع اليأس وحق الأمل

كثير من الشعر يتوهَّم النبوَّة، وقليل من الشعراء يدَّعونها، وشاعر واحد في تاريخ العرب تفرَّد بلقب "المتنبي". لكنَّ هذا لا ينبغي أن يحول دون الاستعاذة بالشعر والفلسفة من شرِّ المنطق والسياسة للقول على فلسطين اليوم بين واقع اليأس وحق الأمل، بعيداً عن التأويل المريح لمقولة قديمة تفيد بأن "الشعر لا ينقذ العالم، بل يحتاج إلى من ينقذه"، ومقولة أقدم بأن "على الفلسفة أن تكون ضمير الغد عبر معرفة الأمل." ومناط الكلام هنا هو رؤية فلسطين سجناً والفلسطينيين أسرى محكومين بالإعدام الجماعي في ظلِّ الاستعمار الصهيوني لفلسطين الذي لم يبدأ بالنكبة ولن ينتهي بالإبادة. ففي وصف حالتنا السجنية هذه صاغ محمود درويش، في مطلع الألفية الثالثة، مقولة خلاصية حيال ما يفعله السجناء والمحكومون بالإعدام: تربية الأمل، والثقة بالماء. صحيح أن غزة اليوم لن ينقذها الشعر ولن تعمِّرها الفلسفة، وإن كانا يضيئان قلبها وقلب العالم، لكنَّها بحاجة إلى كثير من الأمل والماء. ألم ينبثق أسطول الصمود من أقاصي ماء المتوسط وشمسِ سماءٍ بعيدة... وإن لم يفلح كلُّ مَنْ تحتها بشدِّ أسطول البحر إلى رمل غزة؟

ولأن لهذا الكلام ما وراءه، فلا بدَّ أولاً من تأكيد المؤكَّد، وهو: أن الاستعمار الصهيوني هو أصل كل الشرور، وأن قيام كيان "إسرائيل" هو الخطيئة الأصلية النفَّاثة التي لن تسمح لذاتها (أيديولوجياً وسياسياً وعسكرياً) بالتوقُّف، وأن لا شيء لدى الاستعمار يقدِّمه لنا وللعالم إلا العنف، وأن الثورة الفلسطينية هي مسار متواصل لحركة تحرُّر وطني لشعب مستعمَر لا ينبغي له أن يقدِّم كفارة لخطيئة لم يرتكبها، وأن لوم الضحايا لن ينتج إلا مزيداً من الضحايا الذين لا يكفُّون عن النزف والوحوش التي لا تكفُّ عن الولوغ في الدم. ولكنَّ نتيجة الصراع الذي امتدَّ إلى ما يزيد على مئة وعشرين عاماً، أفضت إلى تحويل الفلسطينيين إلى أسرى في سجن فلسطين المفتوح الذي يديره كيان من السجانين الصهاينة... وهم كذلك، وللمفارقة، سجناء الحيِّزية ذاتها والزمنية ذاتها وإن كانوا يتمتعون بامتيازات اقتصاد المراقبة والمعاقبة وإدارة شؤون الحياة والموت في هذا السجن الممتدِّ من النهر إلى البحر ليضمَّ المستعمَرين الفلسطينيين والمستعمِرين الصهاينة: الأوَّلون سجناء ينتظرون الخلاص، والآخرون سجَّانون ينتظرون القصاص.

يتمنى المرء لو كان هذا التوصيف الكابوسي مجازياً وحسب، لكنَّ المعطيات على الأرض تفيد بأنه ليس كذلك. فقد تحوَّلت فلسطين كلُّها إلى سجن مفتوح، وتحوَّلت غزة كلُّها إلى مقبرة مفتوحة. وفي فلسطين الآن زمنان ينوس فيهما الفلسطينيون بين الحياة والموت: الزمن الاجتماعي وهو الزمن الفعلي-الخطِّي الذي يحياه الفلسطينيون في سجنهم الأكبر على امتداد جغرافيات فلسطين التاريخية الخمسة (القدس، وغزة، والضفة

الغربية، وفلسطين المحتلة 1948، والشتات)، و**الزمن الموازي** (2010)، زمن وليد دَقَّة، وهو الزمن الآسن-الدائري الذي يحياه الأسرى في سجنهم الأصغر الذي تُشكِّل مواقعه الجغرافيا الفلسطينية السادسة. يعمل الصهاينة على جعل كل من السجنين مختبراً لتجريب سياسات الموت والحياة وتعمِّمها، حسب الضرورة، على كلٍّ من السجنين ضمن منظومة رقابة وضبط وسيطرة قابلة للاستنساخ على الدوام بين هذه المعازل الستة. وقد أتاح زمن الإبادة الجماعية في غزة وما رافقه من جرائم حرب في عموم فلسطين، بما في ذلك "الإبادة اللامرئية" في السجون، فرصة للتأمُّل النظري في إمكانية تلاشي التقابل بين الزمن الاجتماعي والزمن الموازي. في هذه اللحظة من التاريخ الفلسطيني، الذي تحكمه "حالة طوارئ" استعمارية واحدة، اندغم الزمنان وصارا زمناً واحداً هو الزمن الموقوت الذي أصبح فيه الفلسطينيون كلُّهم أسرى، وفلسطين كلُّها سجناً: في حيفا، ورام الله، والقدس، وغزة، و"سديه تيمان" الذي في بئر السبع، ومخيمات الشتات حتى... وغيرها من جغرافيات فلسطين الأسيرة التي تنتشر فيها السجون من قلاع تيغارت الانتدابية إلى معسكرات بن غفير الفاشية. وفي ظل هذا الزمن القيامي للإبادة، لم يعد تهديد الوجود الفلسطيني قائماً على مجتمع الأحياء في أمكنة الحياة (المَحايي) وحسب، بل امتد إلى مجتمع الأموات في أمكنة الموت (المَقابر) وميادين التعذيب، ومواقع الإعدام الميداني، و"جزِّ العشب"، والسجون، ومقابر الأرقام، وثلاجات اعتقال الموتى، وغيرها من أمكنة اللاحياة. لم تربك إرادة الإبادة الصهيونية أنظمة الحياة الطبيعية وحسب، بل وأربكت أنظمة الموت عبر تدمير مقوِّمات الحياة ومقوِّمات الموت.

في هذه الأزمنة، أزمنة اليأس والتحدِّي، وبين شقَّي رحى نكبة فلسطين وإبادة غزة، يتساءل الناس: هل هناك أمل؟ فتتوزَّع الإجابة المستحيلة بين متفائل ومتشائم، كأنهما السلطة والمعارضة في دولة فاشلة: يقفان على أرض واحدة، وينامان تحت سماء واحدة، ويحدِّقان في أفق واحد، ولا فرق بينهما إلا في القدرة على مهاداة الهزيمة أو معاداة النصر، وكلاهما واثق من امتلاك كثير من المعلومات التي تُعفي من التحليل... بعيداً عن غوايات العقل وتمارين الإرادة! وأما المتشائل، وهو اختراع بلاغي لم ينشغل بالهزيمة والنصر بقدر انشغاله بالبقاء، فلا مكان له في مقاربات الأمل، لأن بقاءه راهنيٌّ محض، ولا علاقة له بندوب الماضي وحروب المستقبل، بالضرورة، ولا بضروب الأدلجة التي تنكأ جراح الصدور وشواهد القبور دون أن يرفَّ لها جفن. في حضرة اليأس، يطرح المتفائل سؤالاً صعباً: "إلى أين يذهب الأمل؟" فيحتال المتشائم على الإجابة بسؤال أصعب: "من أين يأتي الأمل؟" وليست ثمة إجابة شافية، بطبيعة الحال، لأن كلَّ الإجابات صعبة توجع القلب.

وبين التفاؤل التجريبي والتشاؤم المجرَّب، يقف اليأس شاهراً سيف الإجابة-الهاوية، التي تشبه ربعاً خالياً مزاجيَّ الحدود، بين مفردات السؤال البريء قبل أن يعبث به المتفائلون والمتشائمون: "هل هناك أمل؟" كيف نقيس المسافة بين سيِّدة أدوات الاستفهام-هل وهي الواثقة من خُطاها نحو التحقُّق، والظرف الماكر-هناك وهو يتموضع على الحدِّ الفاصل بين مكان وزمان غير قائمين أصلاً إلا في الخيال، والكائن الخرافي-الأمل الذي لا تعريف له في اللغة ولا في الحياة ولا في الموت؟ ليس الأمل شخصاً، ولا ذاتاً، ولا خاصيةً، ولا صفةً، ولا حالاً، ولا مقاماً (وإن أقام فينا وأقمنا فيه لمقتضيات الصمود)... بل هو بالكاد لحظة عابرة في محاولة "التأمُّل" في الأمام

المتحرِّك وهو يتحوَّل، بقدرة قادر، من مكان الحاضر إلى زمان المستقبل! لكنَّ الأمل، في ذاته وبحدِّ ذاته، لا يأتي ولا يذهب، لأنه ليس كائناً، ولن يكون. ولأنه ليس متعيِّناً، ولن يتعيَّن. ولأنه ليس أزلياً، ولا حادثاً. ولأنه ليس سرمدياً، ولا زائلاً. ولأنه لا يَقتُل ولا يُقتَل... فكيف، بعد ذلك كله، نتكلَّم عن الأمل الذي لا يولد ولا يموت، إذ لا بدء له ولا انتهاء، إلا كما نريده أن يكون؟

وحين يدخل فعل الإرادة على لحظة الأمل، يصير الأمل منهجية تتوسَّط النظر والممارسة: منهجية فعلية باعثة على الملل، ومنهجية شكلية باعثة على الكلل كالمنهجيات الرتيبة التي "نتعلَّمها" في مراهقتنا الأكاديمية حتى "نستخدمها" في حياتنا حين نكبر... وتكبر الأسئلة! وإن صحَّ أن الأمل منهجية، فإنه يُوصَف، ويعْمَل به، فيصير قادراً على إعطاء وعد نظري تحقِّقه الممارسة. والوعد، وعد الحُرِّ بطبيعة الحال إذ العبد لا يقدر على الوعد ولا يقدر على الوفاء، دَينٌ واجب السداد وإن طال الأمد وعَسُر الحال. لكنَّ سداد الدَّين لا يتضمَّن، بالضرورة، نتائج أكيدة ونهايات سعيدة، بل يضمن "التحقُّق" الذي ستكون نتائجه أقل حزناً ونهاياته أقل بؤساً. وبهذا المعنى، يقدِّم لنا العابث الأكبر بالنهايات، الأيرلندي صمويل بيكيت، نصيحة لا تقدَّر بثمن في روايته ما قبل الأخيرة **القادم أسوأ** (1983)، مفادها: "حاوِل ثانيةً، افشل ثانيةً، افشل بشكل أفضل!" بدلاً من تسرية الوقت في **انتظار غودو** (1949) أو **في انتظار البرابرة** (1904) كنوع من الحل على ذمَّة قسطنطين كفافيس. وإذا ما تجاوزنا عبث "شرف المحاولة"، بترجمة تحويلية ظالمة لمقولة بيكيت الظالمة، فإنها تشكِّل مفتاحاً لا غنى عنه لفهم "تجارب الأمل" بوصفها مفاتيح منهجية لجعل القادم أقل سوءاً، لا فجر فيه ولا انفجار. تلك هي وظيفة الأمل: لا اجتراح المستحيل—فتلك مهمة الثورة، بل أخذ الممكن الجريح من قرنيه النظيفين أو من ذيله الوسخ إلى "نهاية أقل سوءاً" كما يتصوَّرها العقل، أو "نهاية أفضل" كما تُصوِّرها الإرادة.

ليس الأمل كائناً يأتي ويذهب، بل نذهب معه إليه لنشهد تحقُّقه في نهاية الطريق أو نستشهد دونه وكأن التحقُّق والنهاية صنوان يتماريان في الأمل، وكأنَّ الأمل هو خطُّ النهاية التي يبدأ التحقُّق عندها وينتهي، فيكون أقصى أشكال حضوره هو تحقُّق غيابه حين يتمُّ المهمَّة المستحيلة. حين كنَّا صغاراً تجرَّعنا بلاغة ثورية جراحية تفيد بإمكانية الشهادة على النهاية السعيدة حتى وإن سقط الشهيدُ وقد صار السعيدَ بقرار مِنَّا دونها... لم يستأذن الباقون التعساءُ الذاهبينَ السعداءَ في مصير حواسِّهم وجوارحهم وخوالجهم (التي يتبرَّع بها الأوَّلون عن طيب خاطر نيابة عن أصحابها الآخرين)، لكنَّ الجميع توافقوا على ضرورة "الاستمرار" حتى لحظة الانتصار، كما تقول أغنية قديمة كنا نستمع إليها في إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية... القديمة، ونفرح أننا المعنيِّون في ضمير المخاطَب الجمعي على وقع موسيقى عسكرية تحبها سذاجتنا العسكرية: "استمروا استمروا، يا صحابي استمروا. أوقدوا من دمائي شموع النهار. أوقدوها وسيروا على الجرح سيروا. وأضيئوا الطريق بناري، وارشقوا الزهر فوق ترابي. يا صحابي: لا يهمُّ المقاتل حين يضحِّي أن يرى لحظة الانتصار. سأرى لحظة الانتصار، سأراها بعيني رفيقي. ودمي الآن خيط الشروق، فأضيئوا الطريق بناري. وارشقوا الزهر فوق ترابي... واستمروا يا صحابي استمروا." يستمر الرِّفاق والغزِّيون والعامليُّون واليمانيُّون، ويبثُّ الأنبياء والشعراء والروائيون والمسرحيون والأسرى الذين سقط قطار صفقة الحرية عن خريطتهم، وغيرهم من صنَّاع الأزمنة النبلاء وقرَّائها، سِيَرَ الصراع الأبدي بين اليأس والأمل.

من أين تأتي إرادة الاستمرار إذن؟ وهل لها برنامج؟ وعلى أي بند في برنامجها يقع الأمل؟ تجيب الفلسفة (تلك التي تجاوزت الأنوار ورَوحَنت المادية من أجل عقلنة الرجاء) بأن الأمل لا يقع، بل يُتوقَّع! وهذه الإجابة، بالتأكيد، ليست لعبة بلاغية بمقدار ما هي قنطرة تربط فلسفة الرجاء بمبدأ الأمل، ومن التقائهما يبزغ الحق في الأمل— موضع الشاهد في هذا المقام. فكما تشتغل الفلسفة بحدود المعرفة، فإنها تنشغل كذلك بما وراء تلك الحدود، بمعنى أنها تشتغل بالمتحقِّق وما هو برسم التحقُّق—حيث يفضي الأمل إلى سَكينة العدل القادم. وبالتالي، فإن الأمل ليس مقولة إيمانية بقدر ما هو نشاط روحيٌّ محمول على الكدِّ والفاعلية الساعية نحو الخير الأسمى الممكن، لا في عالم الواقع (هنا، والآن)، ولا في عالم المثال (الذي لا هنا فيه، ولا آن)، بل في عالم المتوقَّع (هناك، وآنذاك)... حين تشرق الشمس على أرض طاهرة. ولكن هذا العالم المُشتَهى الذي يبدو بعيد المنال، وقد لا تكفي حياة واحدة لبلوغه، يقتضي الإيمان بقدرة النفس على الخلود، و"الاستمرار"، عبر صور وجود أخرى، من أجل رؤية "لحظة الانتصار بعيني رفيقي." وهكذا، فإن الأمل لا ينبثق إلا من قناعة راسخة باستحقاق ما يفضي إليه الأمل. وهذا الاستحقاق، الذي ينتحل صفة الجدارة، هو وعد المتأمل لذاته بقادم أفضل يأتي باعتباره "حقّاً غير مستوفى بعد." هنا، تلتقي الجدارة بتحقُّق وعد الأمل بالمسؤولية عن تحقيق الوعد بالأمل في مستقبل قابل للتشكُّل (هناك، وآنذاك) عبر فعل الإرادة القادرة على جعل صوره مغايرة لصور الواقع الآسن والوعي الآسن (هنا، والآن). فالأمل، إذن، ليس نظرية تعريف الجدارة، ولا منهجية تحديد المسؤولية وحسب... ولكنه كذلك ممارسة ثورية تعمل على تجاوز صنميَّة الواقع نحو حيويَّة المتوقَّع.

هكذا، يبدو الأمل وكأنه شرط وجود الإنسان وشرط بقائه وشرط استمراره... دفعة واحدة. ولأنه كذلك، فقد تحوَّل حق الأمل من استعارة فلسفية إلى مسألة قانونية في مدوَّنة حقوق الإنسان (الأوروبي بطبيعة الحال)! وهذه المسألة تتركَّز حول ضرورة منح المحكوم بالسجن المؤبَّد (غير القابل للتخفيض) "حق الأمل" الذي يعني ضمنياً (قابلية قانونية وواقعية للتخفيض)، ما يتيح للمحكوم الأمل بتصوُّر مستقبل أفضل يمكِّنه من السعي للكفارة، وممارسة الاعتراف، والإحساس بالكرامة... أي أنه يمكِّنه من استعادة الإنسان الذي فيه حين تستعيد الإنسانية العدل الذي فيها، فينفتح نفق السجن على أفق الحرية... نظرياً على الأقل. وحين يلتقي حق الأمل (بوصفه قابلية ضمنية لتحوُّل نفق السجن إلى أفق) بواجب الأمل (بوصفه ممارسة ثورية تستند إلى الجدارة) يتناتج المستحقُّون للأمل... وأي شعب على وجه الأرض أكثر جدارة من الشعب الفلسطيني بأمل الحرية، والتحرر، والتحرير من سجنهم الكبير؟ لكنَّ الحق في الأمل يفضي إلى تحويل الأمل إلى واجب فردي وبرنامج جماعي للمطالبة بالحق في الحياة والمقاومة دفاعاً عنها على الرغم من مرارة الفقدان وضياع الأوطان.

الفقدان يورث اليأس، واليأس يورث الأمل، ويستمر السيد التاريخ بينهما في صياغة زمن الفلسطينيين الدائري الذي شكَّل حالة فشل ناجحة في امتحان الحداثة "فقد [فيها الفلسطينيون] القدرة على الفقدان" بلغة إسماعيل ناشف، صائغ **معمارية الفقدان** (2012). ربما كان هذا النحت المعرفي البليغ ترجيعاً لمقولة شعرية بلغت ذروتها في **أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي** (1992)، ديوان محمود درويش الذي تصادت فيه زفرتُه الشعرية مع "زفرة العربي الأخيرة"، زفرة أبو عبد الله الصغير—آخر ملوك النهاية قبل أبو عمار. كانت

الأندلس للفلسطينيين، على الأرض وفي القصيدة، عنواناً متعدِّد الدلالات لخسارة فلسطين ذات الامتياز الوطني على الجنة لأنها "وطن قابل للاستعادة"، تماماً كقمر البروة الذي لم يسقط في البئر في **يوميات الحزن العادي** (1973). لكن خسارة الجنَّتين كانت كافية لحمل درويش على إعلان بيانه العام، ولمَّا يُقتَل تحت زيتونته مع لوركا: "لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا." كان "مؤتمر مدريد للسلام" 1991 إرهاصاً خجولاً بقرب "اتفاقية أوسلو" 1993، أو "فرساي الفلسطينية" كما تجرَّعها إدوارد سعيد (1993)... وبينهما، صاغ درويش في العام 1992 إعلان اليأس الأكبر في تاريخ العرب والفلسطينيين: "حصاني على ساحل الأطلسيِّ اختفى، وحصاني على ساحل المتوسِّط يُغمد رمح الصليبي فيّ."

لكنَّ درويش، وبعد صراع طويل مع اليأس، اقترب في أوج انتفاضة الأقصى من تحديد الأمل على نحو صار شعر الفلسطينيين وشعارهم. ففي **حالة حصار** (2002)، حيث اتَّضحت معالم فلسطين كلِّها كسجن كبير، وصف درويش حالتنا بالقول: "نفعل ما يفعل السجناء، وما يفعل العاطلون عن العمل، نربِّي الأمل." لم يكن درويش مفرطاً في المباشرة والسذاجة ليحيل تربية الأمل إلى بطالة مقنَّعة، بل كان يؤسِّس لوصف حالة الحصار المتواصل في فلسطين النكبة على الرغم من أنها دائماً "بلادٌ على أهبة الفجر." كان درويش يمهِّد شعرياً للشعار الذي صار لازمة الكلام عند جموع الفلسطينيين في كامل التراب والشتات، وهو: الإصابة الجماعية بداء الأمل. ففي خطابه أمام وفد البرلمان العالمي للكتَّاب في 25 آذار 2002 "الأمل داءٌ لا شفاء منه"، امتدح درويش الزيارة الشجاعة للكتَّاب في ظل الحصار الصهيوني الوحشي، مشيراً إلى أن زيارتهم أكَّدت للفلسطينيين أن ضمير الإنسانية لا يزال حيّاً، وقادراً على الاحتجاج، والوقوف إلى جانب العدالة، والمشاركة في حمل "عبء الأمل." وبزيارة فلسطين استعاد المثقفون الأوفياء دورهم الحيوي ومسؤوليتهم في معركة الدفاع عن الحرية والنضال ضدَّ العنصرية والفاشية والاستعمار في جنوب العالم الجريح كما في شماله الآثم. وعلى الرغم من بلاغته العالية في توضيح حقوق الفلسطينيين في بلادهم وما لحق بهم من ظلم الحلول السياسية لمسألة فلسطين لا لقضيتها، لم يخفِ إعجابه بمهمَّة الفلسطينيين التاريخية في "أنسنة التاريخ." صحيح أن فعل "الأنسنة" بقي غامضاً يعوزه كثير من التكميم على يد ضحايا التاريخ ونتاجه من الفلسطينيين، ولكنَّ قضية الفلسطينيين بقيت واضحة، إذ إنها "قضية إنهاء الاحتلال. [و]إن مقاومة الاحتلال ليست حقاً فقط. إنها واجب وطني وإنساني ينقلنا من شرط العبودية إلى شرط الحرية. وإن أقصر الطرق لتجنب المزيد من الكارثة، والوصول إلى السلام، هو تحرُّر الفلسطينيين من الاحتلال، وتحرُّر [الصهاينة] من وهم السيطرة على شعب آخر. لكنَّنا مصابون بداء لا شفاء منه هو: الأمل. الأمل في التحرُّر والاستقلال. الأمل في حياة طبيعية لا نكون فيها أبطالاً ولا ضحايا."

وهكذا، فقد أحال درويش، ساخر الفلسطينيين الأكبر وساحر بيانهم، مقولة "تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة" إلى لازمة غير لازمة لولا توسُّط الأمل في الإقامة الدائمة بين عقل الفرد وإرادة الجماعة. ومع أننا نقيم على هذه الأرض التي "تستحق الحياة" لأنها "أم البدايات، وأم النهايات" فلسطين، التي لا يكفُّ شعبها عن الجهر بـ"الإصابة بداء الأمل"، إلا أننا لا ننكر أن الأمل لحظة غير تاريخية لأنه استيهام فردي، قبالة لحظة خيبة الأمل التاريخية (لأنها إدراك جماعي) لجسامة المسؤولية الملقاة على عاتق من ينذرون أنفسهم لإنقاذ التاريخ من

الأنسنة التي تلاشي الفروق بين باطل الغالبين وحق المغلوبين. ولأن درويش تعلَّم "أن يحذر الفرح، لأن خيانته قاسية" من عبور تشرين 1973 إلى طوفان تشرين 2023، فقد جاء في اعترافه الذي تأخَّر نشره **أنا الموقِّع أدناه** (2014): "لم يعد هناك ما يكفي الوهم لأخاف خيبة الأمل... لا أريد أن أرى أكثر مما رأيت من خيبات الأمل، ولعل ذلك هو ما تبقَّى لي من أمل: أن أحصِّن نفسي ضدَّ الخيبة." لم يتوانَ درويش عن إسداء النصح لأبناء شعبه الذين نُصبت خيامهم على حافة الهاوية، والذين "يضجرون من الأمل كما يضجر المرء من عشاء متكرر، لكنَّهم يعودون إلى العشاء، وإلى الأمل"... بعدم "الإفراط في التأويل" والأمل الذي لم يتبقَ غيره أمام الفلسطيني الذي لا يكفُّ عن القول: "لو لم تكن الأرض كروية لواصلت السير!" **في حضرة الغياب** (2006). لقد امتلك درويش ما يكفي من رأس المال الجمالي ليبثَّ حكمته التي لا يدانيها إلا "حكمة المحكوم بالإعدام" في **لا تعتذر عمَّا فعلت** (2004) (وكلنا محكومون بالإعدام في غزة وعموم فلسطين، وليس فقط بعمليات الاغتيال، والإعدام الميداني، و"جزِّ العشب"، وشرعنة إعدام الأسرى...)، حكمة أهَّلته أن يسوِّق تفسير حلمه بأن "قلب الأرض أكبر من خريطتها" وأن يكتب وصيته بدمه: "لي حكمة المحكوم بالإعدام: لا أشياء أملكها لتملكني، كتبتُ وصيتي بدمي: ثقوا بالماء يا سكَّان أغنيتي." ولأنَّ الثقة بالماء تستدعي الثقة بالسفينة التي على الماء، ولأنَّ لكلٍّ منا "عمل على ظهر السفينة"، كما جاء في **جدارية** (2000)، فقد ختم درويش بحثه الطويل عن الأمل بصياغة ناب عنه فيها ضميرُ غائبٍ مستتر أرهقه سؤال الأمل وقد صار سراباً كـ **أثر الفراشة** (2008) أو كاد: "ليس الأمل نقيض اليأس، ربما هو الإيمان الناجم عن لا مبالاة آلهةٍ بنا... تركتنا نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير الضباب. وقال: ليس الأمل مادةً، ولا فكرةً، إنه موهبة."

هكذا صار الأمل، عند درويش وسكَّان أغنيته، صنو **الشعر: حرفة وموهبة** (2004)، وإن لم يصل إلى حدود الهواية ليكون جزءاً من هوية أصحابه الواقفين على حافة الهاوية! فأصحاب الأمل "واقعيون"، لكنَّهم غير ودودين مع الواقع؛ "مستقبليِّون" لكنَّهم مثل شاعرهم لا يريدون **لهذي القصيدة أن تنتهي** (2009)؛ "غارقون" في القادم، لكنَّهم لا ينسون سيرة النهر لاختصار الدرب إلى البحر؛ "عاطفيون" حدَّ الإيمان بليلة القدر، لكنَّهم ليسوا سذَّجاً للاعتقاد أنها ستطلع عليهم في الفردوس المفقود؛ "خياليون" لأنهم أصحاب أرض الحكايات، لكنَّهم لا يسألون أستاذ الأساطير عن ضرورة الماضي لمعرفة أن للتاريخ فرساناً وحمقى. إذن، فهل كان السوري النبيل ممدوح عدوان واقعياً وخيالياً بالفطرة، على خطى إيف جامياك، حدَّ التساؤل: "من ذا الذي سينقذ العالم إذا تخلَّى عنه دون كيشوت؟" كيف لا، وقد أجاب عن السؤال بإعلان المسؤولية بضمير المتكلِّم الجمعي عن إنقاذ العالم: **نحن... دون كيشوت-بحث وقصيدة** (2002)! على عكس درويش، لم يَخفْ عدوان خيبة الأمل لأنه حصَّن نفسه منها بدراسة مقوِّماتِ وهمِ دون كيشوت، أعظم المخلِّصين وهماً في التاريخ، فقاده البحث إلى قصيدة تقرأ الماضي مستقبلاً معافى من لوثة الحاضر وعقلانية الحاضرين "الودودين مع الواقع!" ولذا، لم يكن لـ **حيرة العائد** (2007) أن تكتمل دون أن يوضح درويش، ملك الحدود الرهيف وملاكها، حدود شراكته مع عدوان في الاسم والبحث والقصيدة "بين ثعلبين ماكرين آلفَت [بينهما] الحياة" وفرَّق بينهما الموت، وفرَّقنا عنهما: "على أربعة أحرف يقوم اسمك واسمي، لا على خمسة. لأن حرف الميم الثاني قطعة غيار قد نحتاج إليها أثناء السير على الطرق الوعرة... لم يكن لنا ماضٍ ذهبي على أهبة العودة... لم نبحث إلا عن الحاضر."

لكنَّ حاضر درويش، المبرَّأ من الوهم خشية خيبة الأمل، لم يكن حاضر عدوان الذي يتوسَّل الوهم لا الحقيقة ليُبقي "جذوة الأمل مشتعلة"، وكأنه صاحب **أطروحات حول التاريخ** (1940) ومؤرِّخه الأخير الذي سيخلِّص العالم فيكون مسيحَ زمانه وهازمَ الدجَّال، حتى وإن انتحر المؤرِّخ قبل الأخير قبل أن تسعفه الخطوة الأخيرة في اجتياز السياج! لم يتساءل أساتذة الإنسانيات والعلوم الاجتماعية مرَّة إن كانت دراسة الوهم تفضي إلى غيره، ولكنَّ عدوان خاض أمثولةً وقف المتأملون بساحلها تؤكِّد أن الوهم ضروري للشعر، وأن الشعر ضروري للأمل، وأن الأمل قد لا يقدر على الخروج لملاقاته في آخر الطريق... إلا الموت. في أول الطريق، يعلن عقل عدوان البحثي "لا أخشى غير الأمل الخادع... لا أخشى إلا تَجزِيء الأمل إلى آمال صُغرى،" فيردُّ قلبه الشعري: "ابدأ حيثُ أردتَ ولو ضاع الأملُ، اسلك دربكَ لا تتردْ، فقدان الأمل شجاعةْ، ليس اليأسُ... فتابع سَيرْكْ." يعرف عدوان، الواقعي الذي لم يشأ أن يكون ودوداً مع الواقع، أن غبار الحرب، أو "ضباب الحرب" في لغة خبرائها الذين لا يأبهون بالشعر ولا بالمشاعر، يغطِّي كل شيء في الحرب، لكنَّ ذلك لم يمنعه من ترديد يقين دون كيشوت بأن عدم إعلان النصر لا ينبغي أن يقود إلى إعلان الهزيمة، بل إلى إعلان فروسية الأمل: "ها نحن، غبارُ الحرب يغطِّينا، والكدمات على وجهينا، والحلم قتيلْ. نمشي نحو المنفى باطمئنانْ، فالمنفى هدفٌ لا يحتاج دليلْ: بحصاني الأعجفِ (أعرفهُ أعجفَ)، بالسيف الصديءِ (وأعرفه صدئاً)، بالرمح المكسورِ (وأعرفه مكسوراً)، بالجسد المهزولِ، كآخر نبضات فتيلْ، بالوجه الشاحب، والتُّرس المهروءِ، وأنت على قدميكَ، وأحياناً فوق حماركَ، لا شكَّ نثير الضحك، ولا تخشانا حتى الفئرانْ... لكن، يا سانشو، في هذا الزمن القاحلِ نحن الفرسانْ." هكذا هو الأمل، لا يعلنه إلا منذرٌ عريانٌ، وعيه المُلام مجرَّة ونفسه اللوَّامة ثقب أسود، يقاوم كي لا يخجل من نفسه: "وأنا أصرخُ لأحذِّر مما في الغد يأتينا، والآن أراه يقينا. أصرخُ أني وحدي، لم يبقَ قريباً مني أفقٌ، لم يبقَ على أفقي أملُ. ولكي لا أمسك باليأس ألوذ بموتي."

ولكن... أي أمل يلوذ صاحبه بالموت لكي لا يمسك باليأس؟ هل كان الموت ضرورياً لإعلان باسل الأعرج الفادح: **وجدتُ أجوبتي** (2017)؟ وهل أتى موت رفعت العرعير بالأمل لأنه أصبح حكايةً، على الرغم من قناعته أن **غزة تقاوم بالكتابة** (2014)؟ أي إجابة يمكن أن يوفِّرها الموت، وأي أمل يمكن أن يأتي به؟ لقد أعاد هذان الفلسطينيان الشهيدان، ولمقاومةِ كلٍّ منهما جدواها المستمرة، سؤال الحياة بالموت إلى الواجهة. وسؤال الحياة بالموت هذا هو سؤال شهيد فلسطين الأول—يسوع الجُموع، وسؤال من يعرفون الفارق الهشَّ بين أن نحتكم إلى الأمل (بعدم إعلان اليأس حتى الموت) وأن نكون محكومين بالأمل (بإعلان الأمل عقوبة فخرية قد تجنِّبنا اليأس وإن لم تجنِّبنا الموت). كل هذه المقولات الأفعال تبدو صرخة، و"الصرخة تعدل ألف نظرية" في عرف الساعين إلى الحرية. لكن، من قال إن الصراخ والنظرية ضدَّان؟ وحدهم الذين يملكون ترف عدم الصراخ يقولون، أما الذين يلوذون بالصراخ، والسؤال، لقول "لا"... فهم التوَّاقون إلى الحرية، وهم من يتَّخذون **النظرية كممارسة تحررية** (1994) على خطى ثورية سوداء تُدعى بيل هوكس.

ثمة "لكن" أخرى هنا، تُفضي إلى سؤال آخر حول علاقة "لا" بالموت، وعلاقة "لا" و"الموت" بالأمل. لا نذكر نحن، ورثة أديان التوحيد التي لم تورث إلا الفرقة بين عباد الله الواحد، أن "لا" الأولى لم تورث قائلها إبليس، وقد شيطَنَتهُ مرويات الأديان، إلا اللعنة والطرد من الجنة. أما جنوبي القلعة أمل دنقل، فيحيل إلى **كلمات سبارتكوس**

الأخيرة (1962)، المجالد الحرّ وقائد "ثورة العبيد" في الإمبراطورية الرومانية قبل مئة عام من بداية التاريخ. يعلم دنقل أن "من يقول 'لا' لا يرتوي إلا من الدموع"، ويوصي رفاقه، ساخراً، على لسان سبارتكوس، أن يعلِّموا ابنه الانحناء في إشارة إنجيلية واضحة إلى أن "الودعاء الطيِّبون هم الذين يرثون الأرضَ في نهاية المدى لأنهم... لا يُشنقون." لكنَّه يصرُّ على بثِّ تطويبات سبارتكوس لمن يقول "لا" حتى لو بلغت شرور الشيطنة حدَّ الصلب وحبل الشنق: "المجد للشيطان... معبود الرياح. مَنْ قال 'لا' في وجه من قالوا 'نعم'. مَنْ علَّم الإنسان تمزيقَ العدمْ. من قال 'لا' لم يَمتْ، وظلَّ روحاً أبديةَ الألمْ!"

تتصادى "لاء" الشمالي سبارتكوس في "لاء" الجنوبي دنقل، وتتصادي الاثنتان في "لاء" السوري عدوان الذي ينقل لنا لاءات دون كيشوت التي لا تنتهي في مواجهة خصومٍ ينهونه عن "معركة بلا أمل بالنصر." يصرُّ دون كيشوت، فارس زمانه الوحيد، على الصراخ والسباحة ضدَّ التيَّار وهو المتيقِّن من أنه قد لا يتمكَّن من تغيير العالم، والأكثر يقيناً من أن العالم لن يغيِّره لأنه يمتلك القوة: "قوة أن أصرخ، أن أهجم، أن أهزم"... تلك القوة هي التي تمكِّنه من رؤية "لا" في ذاته وصفاته وفي الآفاق ما دام "الشهداء مضوا، لكن أخذوا معهم كلَّ الأعذار... لا أطلب إلا أن أتأكَّد أنِّي في أعماق القلب ظللتُ كما كنتُ ولم أستسلم للتيَّارْ. أنِّي ما زلت أريدُ بأن أسبح ضدَّ التيَّارْ. أنَّ الظَّهرَ تقوَّس كي يصبح: 'لا'. أنَّ الساقين إذا أعجزني السير ستلتفَّان بشكل الـ 'لا'. أرفعُ زنديَّ أندِّد بالظلم يصيران الـ 'لا'. لم أرفع شارة نصر بأصابع كفيْ، بل أشهرت الـ 'لا'... ما زال القلب هو الهادي. ما زالت 'لا' في كلمات اللغة هي الأجمل... ابدأ حيث أردتَ ولو ضاع الأملُ، اسلك دربكَ لا تتردَّد. فقدان الأمل شجاعةْ، ليس اليأس، فتابع سَيْرك... إن بادرك اليأس من الرحلة ودِّعني... وتهيَّأ للضربْ. وتذكَّر دوماً أنِّي لم أقطع وعداً بالنصرِ، أنا لم أضمن إلا استمرار الحربْ."

تصرخ غزة والمضطَّهدون على البِرِّ في كل رياح الأرض: وأي فائدة يجنيها المغلوبون من استمرار الحرب؟ فتأتي من حصن البحر إجابة سعد الله ونُّوس، مثقف الالتزام الثوري الذي رفض خداع الذات العطشى للانتصار، وواجه الهزيمة بالسؤال عن سببها، وكان جمهرة وعي بين المتسائلين عن فساد الأزمنة والمتشائمين من فساد الأمكنة. فقبل سنة من رحيله، كلَّف المعهد الدولي للمسرح التابع لليونسكو ونُّوس بكتابة "رسالة يوم المسرح العالمي" (1996)، تُرجمت بعد كتابتها إلى لغات عديدة، وقرئت على مسارح شتَّى في العالم. كانت رسالة "إننا محكومون بالأمل" صرخةً في وجه توحُّش العولمة ودعوة إلى الحوار الذي لا بيت له إلا الثقافة ولا مسرح له إلا المسرح الذي من شأنه أن يكون أمثولة العالم الذي غدا قرية صغيرة تتناهب فيها الوحوش عظام ضحاياها. كتب ونُّوس الرسالة وهو يصارع مرض السرطان للعام الرابع ويشعر بدنو الأجل وإلحاح الأمل في أن يكون همُّ المسرح ومهمَّتُه تلبيةَ أكثر الحاجات ضرورة، وهي "الجوع إلى الحوار": الحوار الذي يشكِّل ضمانة استمرار مقاومة الأفراد والأمم ضدَّ التوحُّش والظلم والتفاهة. الحوار بين الفاعلين والفاعلين، والفاعلين والمتفرِّجين، والمتفرِّجين والمتفرِّجين... لصيانة حرية الفرد وجماعية الجماعية من غير سوء، ولاستعادة الشرط الإنساني الذي بدا قاتم المآل في نهاية القرن العشرين، الشرط الضروري لحفظ إنسانية الإنسان في عالم الوفرة التي كان من شأنها أن تُحقِّق يوتوبيا العدالة المشتهاة لو صدقت النوايا وتحقَّق النصر على إرادة الهيمنة لتحقيق

المساواة والحرية والانتصاف للجمال بين شعوب الأرض. لكنَّ هذا الحلم، عصيَّ التحقُّق، بدا بعيد المنال في واقع الكآبة التي خيَّمت على العالم في نهاية الألفية الثانية. كان ونُّوس يدرك اقتراب النهاية، ولكنَّه أصرَّ على الكتابة التي اعتبر التنكُّر لها خيانة لمسرح المسرح ومسرح الحياة... فأطلق صرخته الأخيرة: "إننا محكومون بالأمل، وما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ."

كان هذا البيان هو سطر ونُّوس الأخير الذي دافع به عن شرف المعنى في ظلِّ الرضَّة الأخلاقية التي أصابت الفرد والجماعة في صحراء الخراب المادي والفكري والروحي الذي فرضته العولمة على الجنوب مصحوباً بأمراض السلطة والهيمنة من العنصرية والفاشية والاستعمار. لكنَّ هذا السطر الأخير يستدعي سطراً آخر من مدوَّنة ونُّوس (يشبه السطر الأخير الذي قاتل من أجله حسين البرغوثي العدوان والسرطان) لرفض الاستسلام لليأس على الرغم من عنوانه المتجلِّد "أنا الجنازة والمشيِّعون" (1978). فبعد عقد على نكسة حزيران 1967، كانت إحدى أكثر لحظات العرب اعتلالاً تلوح في الأفق، حيث انفرط عقد العرب، جامعةً وجماعةً، بعقد اتفاقية كامب ديفيد مع كيان العدو، وصارت تعبيرات القومية والوحدة والأمة واللاءات العربية في وجه الصلح والتفاوض والاعتراف... ماضياً ناقصاً في وعي أنظمة تخشى زعزعة "سلامها" الداخلي مع شعوبها، و"سلامها" الخارجي مع "إسرائيل" وأمريكا، كما تخشى خيار الحرية والمقاومة الذي جسَّدته الثورة الفلسطينية كمثل نافٍ لنكوص الرسمية العربية وزمنها المريض. لم يكتفِ ونُّوس، مثل درويش، بالعذاب الذي أورثته إياه صرخة الشهيد الفرد في تابوت الجماعة في **حالة حصار** (2002): "الشهيد يعلِّمني: لا جماليَّ خارج حريتي. الشهيد يحاصرني كلما عشت يوماً جديداً، ويسألني: أين كنت؟ الشهيد يحاصرني: لا تَسِر في الجنازة إلا إذا كنتَ تعرفني... لا أريد مجاملة من أحد"... بل وزَّع ذاته وصفاته بين الجنازة والمشيِّعين.

لقد كان ونُّوس حامل الجنازة ومحمولها واحتمالها لأنه لم يجد صورة مطابقة للواقع العربي أدقَّ منها: "نحن الجنازة والمشيِّعون معاً. بعض مني في التابوت، وبعضي الآخر يجرجر وراءه الأذيال. إيقاع موكب الجنازة هو الزمن—التاريخ. تاريخي الشخصي والقومي... وفي التابوت: وطن، وقضية، وأماني عمر." ولإنقاذ هوية الفرد وقضية الجماعة، كان على ونُّوس أن يسير مع حلمه نحو التحقُّق بأن يكون "المواطن لا"، وأن يقول لا في وجه "المواطن نعم" من المحيط إلى الخليج وهو يرتضي بالتبعية والتجزئة والهيمنة واستبداد السلطة وتغوُّل العدو المتعدد—رسميات العرب، وأمريكا، وكيان "إسرائيل". يصرخ ونُّوس: "أردت، وأريد أن أقول لا. وأبحث عن لساني، فلا أجد إلا رغوة من الدم والرعب. من لساني المقطوع بدأت الهزيمة، وانطلقت الجنازة... من 'لائي' المقموعة على امتداد الوطن العربي نفذ العدو، والانفصال، والفقر، والجوع، والسجن، والجلاد، والانهيار العربي المعاصر. لولا 'لائي' المصادَرة والملجومة لما تكسَّرت لاءات الخرطوم... لولا 'لائي' المصادَرة والملجومة... لما تفتَّت الأرض تحت قدمي، وتشظَّت إلى كيانات، هي الأخرى ستتشظَّى إلى كيانات إقليمية جديدة، كلها مسيَّجة بالعداوات، والنزاعات، وتأشيرات المرور المستحيلة... لولا 'لائي' المصادَرة والملجومة ما كان نصفي في التابوت، ونصفي الآخر يجرجر وراءه الأذيال. ومصادَرة 'لائي' لم تجعلني الضحية والمتفرِّج، الجنازة والمشيِّع فقط، بل ورَّطتني بالتواطؤ. أحسُّ الآن، ومزيج من المرارة والعار يكوي أحشائي، أني ومعي

ملايين، كرَّستُ الانفصال، وبدَّدتُ فلسطين والمقاومة، ودعمتُ سلطة القمع، وشاركتُ في أمر الانسحاب الكيفي أمام العدو... ولأن 'لائي' مصادَرة، اكتشفت وبهَول، أن في وجداني المقروح يوجد سادات صغير، وأني محكوم، بأن أكون ضحية ومتفرجاً، جنازة ومشيعاً، وفوق ذلك، متواطئاً."

وبين أن نكون محكومين بالأمل وأن نحتكم إلى الأمل، يشهر اليأس سيفه السرمدي في وجوهنا ونحن نجرُّ أجسادنا في جنازات الأحبة والأزمنة والأمكنة من غزة إلى بيروت إلى صنعاء: "مَنْ يبارز؟" لكنَّ النِّزال يورث الفقدان، والفقدان يورث اليأس، واليأس يورث الأمل... والأمل يورث التحدِّي، فيعلن وليد دَقَّة من زنزانة أسير شهيد تُجاور ثلاجة شهيد أسير سيكوْنُهُ بعد حين شهيداً أسيراً تجمَّدت أزمنته وأمكنته في الجليد: "اليأس كلمة كبيرة لا أحبُّها وأخشى استعمالها. اليأس رفاهيَّة لا يُمكن لأحدٍ في مثل حالي أن يصل إليها. هذا لا ينفي أنَّه في بعض اللحظات لم أبكِ من شدِّة الكوارث التي حلَّت بشعبنا وأمتنا العربية، وجُسِّدت في مشهد طفل متفحِّم في ملجأ العامرية في بغداد، أو طفلة تُنْتَشَل من تحت الأنقاض في الضاحية الجنوبية بعد القصف 'الإسرائيلي' الهمجي، أو لمشاهد المجازر في غزة، أو القتل بدم بارد على الحواجز في الضفة... لكنَّها لحظة وسرعان ما أعود إلى توازني. وبالتالي، أنا لا أُفكِّر في الأسر كما شاؤوا، بل كتجربة وموقع وزاوية لمشاهدة مجمل الحالة العربية والنضالية" (2019). يستشهد وليد دَقَّة، أو يُعلَن عن استشهاده، في 7 نيسان 2024، بعد أن كتب السطر الأخير أو كاد في مديح الأمل الباسل و"الحزن المقاتل" في وجه رفاهية اليأس... يبتهج الحزن بمجاملة حسين مروَّة للحزن وغواية شَعر الشمس على صدر البحر، يهدر صوت مهدي عامل بالحزن الساخر: "لم تشرق الشمس يا رفيق!" ويؤذِّن مظفر النوَّاب، العائد إلى دمشق بلا حزن ولا فرح: "الحزن جميلٌ جداً"، ويحذِّر "إياك وإن عُرِّيت أمام العالم أن تيأس، ثَمَّ قتالٌ شرسٌ باقٍ ما بقيَ اللهُ يحتاج سلاحاً، وحدوداً داخل رأسك... احذر أن تُزْرَعَ 'إسرائيل' برأسكَ، حَصنِّ رأسكْ"... لم تُزرَع إلا الحرية في رأس جورج عبد الله، وها هو الآن حرٌّ في بيروت، يردِّد: "لا، إنَّا على العهد."

وفي مروية إنجيلية عن ظهور آخر لمسيح الجُموع على شاطئ بحر الجليل في طبرية، وقد كان الصيادون من تلاميذه والآخرين قد وصلوا كلال الليل بكلال النهار ولم يأخذوا شيئاً، فغسلوا الشِّباك... حثَّهم المعلِّم على العودة أبعد إلى العمق، في سفينتين تتهاديان على الماء، وإلقاء الشِّباك ثانيةً على الجهة الأخرى، فأمسكوا سمكاً كثيراً، وصارت شباكهم تتخرَّق من وفرته، واقتربت السفينتان من الغرق من كثرته. ثم عادوا إلى الشاطئ، وأطعموا الجياع، وصاروا يصطادون الناس... محبةً. وأما المخلِّص، فجَرَت على يده المعجزات، ورأى ذلك من حسن العمل، فكان الأمل.

وبعد، فلم يتبقَ بين واقع اليأس وحق الأمل، إلا القول إن الانتصار ليس حالة ذهنية ولا الهزيمة، إذ إن للنصر وللهزيمة أعباء وتبعات، بغض النظر عن مهارة المنتصرين في التدليل على نصرهم ومهارة المهزومين في نفي هزيمتهم. واليوم، يلوذ الفلسطينيون بأشعار طروادة الخاسرة وشعاراتها (الهزيمة العسكرية والنصر الأخلاقي)، ويتمترس الصهاينة بواقع إسبارطة الظافرة ووقائعها (النصر العسكري والهزيمة الأخلاقية)... ويواصل النصر

والهزيمة لعبة التناوب في حضرة السيد التاريخ غير المكترث بهوية المنتصرين والمهزومين ما دام ماضياً في مساره الدائري المهيب إلى الأمام الذي لا تقدُّم فيه إلا إلى وراء مكرور تستعيده مرآته المعتمة. أما أثينا فتغيب، حتى إشعار آخر، عن ساحة المعركة على الرغم من رغبة دولة المستوطنين (التي تعتقد أن الجدار الحديدي والقبَّة الحديدية والسيوف الحديدية... ستجعل من دولة تصحو على الحرب وتنام على الحِراب ولا تصافحها الإنسانية لفرط تلوث يدها بالدم، دولة طبيعية) في أن تكونها. يواصل "الواقعيون الودودون مع الواقع" سعيهم لإقناع الطرواديين بالرضى بـ"الهزيمة النسبية"، ويواصل الواقعيون المعادون للواقع سعياً رديفاً لإقناع الإسبارطيين بالرضى بما دون "النصر المطلق" على نحو يؤمِّن للسيد التاريخ مستقبلاً لا يحكمه وهن الشيخوخة ولا تظلله كآبة المآل. ولكنَّ التسليم بهذه الحالة من الهزيمة المشرِّفة والنصر الفاضح، حتى ولو ظل انعدام التكافؤ الأخلاقي بين أصحاب البلاد وغزاتها سلوان الأولين وعقدة الآخرين الذين خسروا نوط الضحية واحتكار الأبد، لن يقود إلى توازن ممكن في الروح والعقل والجسد. فماذا يفعل المغلوبون وقد فاتهم الانتصار؟

في فلسطين، ومن بقي فلسطيني القلب في الجوار العربي والعمق الجنوبي والامتداد العالمي، ليس في وسعنا إلا القليل لإرباك إدارة شؤون النصر على جبهة العدو، ولكنَّ في وسعنا الكثير لإدارة شؤون الهزيمة على جبهتنا... وما دام ضمير المتكلِّم الجماعي في "جبهتنا" منقسماً في "التعقيب على ما حدث" بالنصر أو بالهزيمة، فليعمل الواثقون بالنصر على توزيع أعبائه، وليعمل الموقنون بالهزيمة على المشاركة في تحمُّل تبعاتها، بعيداً عن حفلات التفاؤل والتياؤس وتحويل أعباء "ما حدث" وتبعاته، عبر نضج أخلاقي ومعرفي وميداني، إلى مقوِّمات نصر في الحرب المفتوحة كثيرة المعارك وقليلة الانتصارات. إن تجارب الماضي تفيد أن محاكاة تاريخ المنتصرين لا تورث المهزومين إلا الهزيمة وإن بشروط أفضل (الفشل بشكل أفضل)، لكنَّ وعي التاريخ، عبر تفعيل مهماز النفس اللوامة الجماعية، يمكن أن يقود إلى أمام مختلف يؤمِّن فيه النضج الأخلاقي انتصاراً على الهزيمة بوصفها نهاية إمكانات الأمل بالحرية، والعمل لأجل التحرير... فليكن أمل

عبد الرحيم الشيخ